التحرر العرفاني مؤكدا على شعر منصور الحلاج

د. عباس اقبالي
استاذ مشارک فی قسم اللّغة العربيّة و آدابها
جامعة کاشان (إيران)

موجز المقال:

إنّ تحرّر الانسان من القيود النفسانية، وثيق الصلة بنظرته إلى الوجود و على ذلک فإنّ تحرّر العارف مبنية على المعرفة الّتى ينالها و تلک عن جرّاء تجاربه الشخصيّة، و تهذيبه للنّفس ورياضاته الشّاقّة، و بهذا تحصل للعارف احوال لا تصاغ فى قوالب الکلمات و لا ترتدى ثوب الألفاظ العاديّة ويضانّ بها على غير أهلها؛ و لذلک ما انفکّ کلام العرفاء مشحون بالرّموز و المصطلحات. و کلمة « أنا الحق» لحسين بن منصور الحلاّج ـ الّتى نعبّر عنها فى هذا المقال بـ «أنا» المنصورى ـ ، تعدّ من هذه التعبيرات الرمزيّة و الّتى طرحت بأشکال مختلفة و تنبىء عن أحوال هذا العارف المهذّب المتحرّر عن قيود النفس ، و هى رمز ايدئولوجيّته التوحيديّة.

و قد کشف هذا المقال النّقاب ـ بعد بيان ميزات المعرفة و استعراض کلمات العرفاء ـ عن أنّ الحلاّج قد تَحَرر قلبه من کل العلائق والقيود والأقفال و صارعبدا حرا ومخلَّصاً من کلّ ما سوى اللّه، حتى من نفسه،و کان يعتقد بوحدة الوجود، بمختلف أبعادها المتمثّلة فى الوحدة الوجوديّة و الوحدة الحلوليّة و وحدة التجلّى.

المصطلحات الرئيسة: التحرّر، أنا الحق، الحلاج. الوحدة الوجوديّة، الوحدة الحلوليّة، وحدة التجلّى.

The freedom in mystic
Uncertain on Mansoor HallajTs poetry

Abbas Eghbaly•

Carnal human freedom from constraint is inextricably linked with his view of the universe. The mystic bothering is based on his knowledge, recognizing that through personal experience and refinement of breath and severe austerity

• . Associate professor Department of Arabic of the University of Kashan .

screw.Personal experience that expressing them in words not fit and not wearing Parnia ordinary words. And manner of expression of these experiences, a sign of freedom and liberation from traditional styles. In this regard, password "Ana al-haq" Attributed to Mansoor Hallaj is a sign of the philosophy of this mystic. This cross-sectional study ways of expression through a few examples of speech recognition،

سِواه تَكُونُ عبدَ اللّه حَقًّا وأنت لِشيءٍ لا».ارفع نفسک من الطّريق فقد وصلت« لَن تكونَ له على الحقيقةِ عَبدًا وشيء مِمَّا دونه لک مُسْتَرقٌ» مُستَرقّاً»، و أيضا: " إنّک

features mystical, mystic, mystic view of the freedom to explore emerging.And it has that mystic deliver true freedom of all depents and locks and dams knows except God, even your species servant of all freely placed

Key words : "freedom "، Ana al-haq،" Al-Hallaj"،" pantheism"،" mystic"

المقدّمه:

معلوم أنّ التحرّر ليس بمعزل عن معرفة الانسان وعلى ذلک فإنّ التحرّر عند الصوفي و علامته تختلفان عن الآخرين كما أنّ المعرفة العرفانيّة الصوفية تتفاوت عن سائر المعارف؛ لأنّها حصيلة تجربة كشف و ذوق تلهم صاحبها إلهاما من اللّه سبحانه و تعالى. و العارف فى بيان هذه الثمرة، يستخدم رموزا و مصطلحات مبهمة لا يعيها إلاّ هو. و مصطلح «أنا الحق» المنسوب إلى الحسين بن منصور الحلاج من جملة هذه الرّموز.

و قد تناول هذا المقال بدراسة ما يدلّ على تحرّر الصوفي المتمثّلة في كلمات العرفاء و لا سيّما الحلاّج عبر التتبع فى النّصوص العرفانيّة و جرّاء دراسة ديوان الشاعر، مؤكدا على الكلمة المشهورة المنسوبة إليه يعني «أنا الحقّ» بغية استيعاب مفهوم «الأنا» لدى العرفاء و و تبيين ما يؤكّد على حرّية الحلاج المتبلورة في اتّجاهاته التوحيديّة و عقيدته فى «الوحدة الوجوديّة» و « الوحدة الحلوليّة» و « وحدة التجلّى».

و بما أنّ الحلاج هو أوّل من ابتدع عنوان «الأنا» و أدخله فى الشّعر الصّوفى، فقد أكّدنا في عنوان المقال على «الأنا المنصورى».

المعرفة العرفانيّة ـ الصوفيّة:

المعرفة العرفانيّة، هى حصيلة الكشف و الشّهود لدى العارفين و ما هى إلاّ ثمرة تجاربهم الشّخصيّة، التجربة الّتى تعادل كلمة experience (1)، لا ما يعادل كلمة experiment،يعنى ما تنتهى إلى المعرفة و الخبرة الشخصيّة لدى الانسان، معرفة ليس

للعقل فيها أىّ دور بارز، حيث إنّ العقل عند الصّوفيّة ليس هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة بل إنّه ليس مصدراً يقينيّاً دائماً؛ إذ العقل عجَز عن الإجابة على الأسئلة الميتافيزيقيّة و قد كشف قصوره و ألجأ المتصوّفة المسلمين إلى أن يتجاوزوا حدود العقل إلى ما وراء العقل إيماناً منهم بأنّ العقل وحده ليس نهاية المطاف للعلوم. لقد ظلّت المسائل المتعلّقة بالغيب تبحث عن إجابة في مخيلة الصّوفي فكان السؤال أكبر من حدود العقل الّذي أنتج السّؤال نفسه. قال النّوري:« العقل عاجز لا يدلّ إلاّ على عاجز مثله» ومن هنا فإنّ الإلهام والكشف و الذّوق لم يكونوا إلاّ سبلاً صوفيّةً خاصّة لتجاوز ذلك الفراغ المعرفيّ الّذي أنتَجه عجزُ العقل بالمفهوم الصّوفي، فأثبت «الإلهام» كمصدر معرفيّ تفوق على العقل الّذي عجز عن صنع الإجابة للسّؤال المطلق»[1].

يقول ابن عربي:

«و أمّا القوّة العقليّة فلا يصحّ أن يدركه ـ تعالي ـ العقل، فإنّ العقل لا يقبل إلاّ ما علمه بديهة، أو ما أعطاه الفكر، و قد بطل إدراك الفكر له ـ تعالى ـ فقد بطل إدراك العقل له من طريق الفكر و لكن بما هو عقل، إنّما حدّه أن يعقل و يضبط ما حصل عنده، فقد يهبه الحقّ المعرفة به، فيعقلها لأنّه عقلٌ لا من طريق الفكر هذا ما لا نمنعه. فإنّ هذه المعرفة الّتي يهبها الحقّ ـ تعالى ـ لمن يشاء من عباده لا يستقلّ العقل بإدراكها، و لكن يقبلها، فلا يقوم عليها دليل و لا برهان لأنّها وراء طور مدارك العقل»[2].

يقول الحلاّج:

مَن رامَه بالعقل مُسترشِدا أسرَحَه في حيرةٍ يَلهُو[3]

الالهام للعارف ـ فى التّجربة الذاتيّة ـ يعتبر مصدر المعرفة، و هذا الالهام حاكم على العقل والاستدلال. و قد قال النبىّ (صلى اللّه عليه و آله) :

إنّ اللّه احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار[4] و يقول الحلاّج:

إن كنتَ بالغيب عن عينيّ مُحتجبا فالقلبُ يرعاك في الإبعاد و النّائي[5]

الكشف و الشّهود (2) ثمرة الّتى تلهم العارف من لدن العزيز الحكيم، و هذا الكشف يحصل من جرّاء الرّياضة و تهذيب النّفس، يقول ابن فارض المصرى:

و هذّبت نفسي بالرّياضة ذاهباً إلى كشف ما حجب العوائد غطّت[6]

و أيضاً يقول:

و حقّقت بالكشف ، أنّ بنوره الهـ ـتديت ، إلى أفعاله ، بالدّجنة[7]

و فى الحديث: العلم نور يقذفه اللّه في قلب من يشاء[8] و فى هذا المجال يقول ابن عربى:

«العلم الصّحيح لا يعطيه الفكر، و لا ما قررته العقلاء من حيث أفكارهم، و إن العلم الصحيح إنّما يقذفه اللّه في قلب عالِم و هو نور الهيّ يختصّ (اللّه) به من يشاء من عباده من ملك، و رسول، ونبيّ، و وليّ، و مؤمن. و من لا كشف له، لا علم له.»[9]

كلام العرفاء:

للعرفاء رؤية خاصّة نحو العالم، رؤيتهم تتفاوت عن غيرهم، فى اللّه و فى الوجود و فى أسماء الإله و صفاته عزّ و جلّ و فى الانسان. و ما تحصل لهم من الاحوال لا يرتدى ثوب الالفاظ؛ لانّ الكلمات المتداولة بين عامّة النّاس قد وضعت لما عرفها الانسان عن طريق الحواس، و معلوم أنّ المعرفة العرفانيّة ليست إلا حصيلة الذّوق. و لذلك للعرفاء اسلوب خاص فى البيان، و نرى عندهم الجنوح نحو اللّغة الشّعريّة باعتبارها وسيلة لبيان نزعة الانسان نحو المطلق، عن طريق الرّموز والكنايات، و الشّعر ـ كما قال ابن عربى ـ كلام رمز و توريّة.[10]

و في هذا المجال، يقول مرتضى المطهّرى: إنّ للعرفاء مصطلحات كثيرة لا يتيسّر فهم مقاصدهم من دون الوقوف عليها، و قد تعمّدوا أن تحيط بتلك المقاصد و الأغراض هالة من الخفاء و الغموض لئلاّ يطّلع عليها أتباع غير طريقتهم لتظلّ المفردات العرفانيّة فى طىّ الكتمان، خلافاً لروّاد العلوم والفنون الأخرى[11] ، و على هذا، فتلك المصطلحات ـ علاوة على طابعها الاصطلاحى ـ لها طابع رمزى.ويعلّل ابوالقاسم عبدالكريم القشيري هذا الاسلوب لكلام العرفاء و يقول:

«اعلم أنّ من المعلوم: أنّ لكلّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها ـ فيما بينهم ـ انفردوا بها عمّن سواهم، تواطأوا عليها، لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم علي المخاطبين بها أو تسهيل على أهل تلك الصّنعة في الوقوف على معانيهم، بإطلاقها و هذه الطّائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، و الإجمال و السّتر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلّف أو مجلوبة بضرب تصرّف، بل هي معان أودعها اللّه تعالى قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم[12]. و يقول السّهرودى:

بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم و كذا دماء البائحين تباح[13]

و المصطلحات نحو « «الوارد»(3)، الخواطر(4)،«الذوق»(5)،«الوجد»(6)، «الفرق والجمع»(7)، و «القبض والبسط»(8)، و.... بمفهومها الخاص العرفانى من التّعابير المتداولة بين العرفاء. و فى المثال: الرياضة تعنى تمرين النّفس على قبول الصّدق و الرياضة الخاصّة تجريد الشّهود و الصّعود إلى الجمع ورفض المعارضات و المعاوضات[14].

و فى هذا المقال بغية كشف ما يدلّ على أن الصوفي متحرّر من كلّ قيد لا يرتضيه العقل و أنّه قد عتق من الاستعباد والاسترقاق المعنوي لأدران النفس وحجب المادة؛ نتطرّق إلى مبانيه المعرفية؛ فبما أنّ للصوفي معرفة خاصّة و لكلامه طابع رمزي اخترنا كلمة «أنا الحق» المنسوبة إلى الحلاج والّتى كثر استعمالها على لسان العرفاء، خاصّة عند هذا الصوفي، و نعبّر عنها بـ «الأنا» المنصورى، لأنّه قد ابتدع و استعمل هذه الكلمة في

معناه العرفانی، یعنی الاتّصال بین«أنا» و« أنت» و حلول اللاّهوت فی النّاسوت و کان یقول: «ما في الجبّة غير اللّه»، و قال« أنا الحق»[15]

و أنشد:

أنا من أهوى و من أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته و إذا أبصرته أبصرتنا
أيّها السائل عن قصّتنا لو ترانا لم تفرّق بيننا
روحه روحي و روحي روحه من رآي روحين حلّت بدنا[16]

و معلوم أنّه لا تفني الأنا و لا تتماحي مع الحقيقة « المحبوبة» إلاّ بسقوط الآنانيّة بالكلّيّة و الفناء التّام فيها.

فلم تهوني ما لم تكن فيّ فانياً و لم تفن ما لا تجتلي فيك صورتي

و لا بدّ من نفي الاثنينيّة الخطابيّة (أنا و أنت) حتّی یصبح المتکلّم عین المخاطب کما أشار الیه الشاعر:

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا و في رفعها عن فرقة الفرق رفعتي

و یعلّق ابو العلا عفیفي علی هذا البیت في ترجمته لکتاب نیکلسون ـ في التّصوّف الاسلامي وتاریخه ـ قائلاً: قد یکون المراد برفع تاء المخاطب إزالتها بمعنی أنّه إذا أراد أحدهما مخاطبة صاحبه تکلّم عن نفسه، إذ کلاهما واحد و لکن یحتمل أیضاً أن یکون المراد بالرّفع ضمّ تاء المخاطب، بمعنی أنّه یقول لمحبوبته(فعلتُ) بدلا من (فعلتِ) و هي تقول (فعلتُ) بدلا من (فعلتَ) و علی هذا یزول الفرق بینه و بینها، و ترتفع منزلتي بارتفاع ذلك الفرق الموجب للتّفرقة و البعد بینهما.[17]

و لا یخفی أنّ هذه الوحدة، المعبّر عنها بوحدة الوجود أو وحدة الشّهود، لها جذور فی الآیات القرآنیّة و الأحادیث المرویّة، حیث یقول اللّه عزّ وجلّ: «سنریهم ایاتنا في الآفاق و في أنفسهم»[18] و

« فسوف یأتي اللّه بقوم یحبّهم و یحبّونه»[19] و قد جاء فی کلام إمام العارفین علی بن ابی طالب(علیه السّلام) :أنا عین اللّه، أنا یداللّه، أنا جنب اللّه، أنا باب اللّه.[20] و قد إشار إلیها أبو العتاهیّة و قال:

و للّه في كلّ تحريكة و في كلّ تسكينة شاهد
و في كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد[21]

عرفان الحلاج

الحسین بن منصور الحلاّج، ابو مغیث، فیلسوف (ت 309) ظهر أمره سنة 299 هـ ، فاتبع بعض النّاس طریقته فی التّوحید و الإیمان[22]، هو صوفیّ قد أحدث ضجّة بین العرفاء الاسلامیین، له شطحیّات (9) کثیرة و قد اتّهم بالکفر و الارتداد و ادّعاء الالوهیّة[23] و یعتقد نیکلسون أنّ الحلاّج کان یؤمن بوحدة الشهود و بوحدة الوجود[24] کما جنح اقبال

اللاّهوى إلى هذا الرأى معتبراً إيّاه رائدا لبث الوعى فى صنوف الناس فى القرون الوسطى[25].

و قد أخذ الحلاّج عن الشّيعة فكرة عمود النّور محلّ قلوب المؤمنين، ـ حسب تعبير شوقى ضيف ـ كأنّ اللّه يتجلّى فيهم منذ البدء[26] و أنّه تثقّف بالثّقافة المسيحيّة و عرف ما فيها من طبيعة المسيح معرفة بيّنة و استقرّ فى نفسه أنّ كلّ ما قيل عن اللاهوت و النّاسوت فيه يصدق على كلّ متصوّف جاهد جهاداً عنيفاً فى الاتّصال بربّه و محبّته، محبّة تملك عليه الشّغاف من قلبه حتّى ليحسّ فى قوّة بالاتّحاد معه ممّا جعله يقول:

أنا من أهوى و من أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتَنى أبصرتَه و إذا أبصرته أبصرتنا

و يقول: لا نبعد إذا قلنا إنّه هو الّذى وضع فى التّصوّف الاسلامى فكرة أنّ الأديان جميعاً تؤدّى إلى اللّه، و فقط تختلف شعائرها و لكنّها تتّحد فى الغاية و بذلك تخطّى حدود الاسلام إلى حدود الدّيانات جميعاً.[27]

يقول آدام متز: «إنّ الغنوصيّة Gnosticisme (10) متأثّرة من الثّنويّة المسيحيّة». و لكن الغنوصيّة الإسلاميّة تتّكى على القوس الصّعودى، و كلّ انسان يستطيع من جرّاء الرّياضة و التّعليم أن ينحسر من مادّياته و يزيد فى معنويّاته و يصل إلى مقام لا يرى إلاّ اللّه و يقول: «ليس في جبّتي إلاّ اللّه» . إنّ إله الانسان المسلم لا يشار إليه، و إله المسيحى قد اختلط بالتوحيد العددى اليهودى وتتّكى على القوس النّزولى و على تجسيد اللاّهوت فى النّاسوت، و قد انحصرت فى شخص باسم المسيح.[28]

و الجدير بالذّكر أنّ الحلاّج كان رجل أبىّ تحرّر من قيود الشهوات و النفس الأمّارة و طهّر قلبه من درن الأنانية و الشرك و وصل إلى مقام وحدة الشّهود(11) لما قال : «ما رأيت شيئاً إلاّ و رأيت اللّه معه»، و بديهىّ أنّ عارفا مهذّباً كهذا يعتبر المذاهب كلّها طرقاً للوصول إلى الحقّ سبحانه، فقد قيل: «إنّ أقسام النّاس و عقولهم متفاوتة فى قبول العرفان و تحصيل الاطمئنان كمّا وكيفاً، شدّة و ضعفاً، سرعة و بطئاً، حالا و علما، كشفاً و عياناً و إن كان أصل المعرفة فطريّاً، إمّا ضرورىّ أو يهتدى إليه بأدنى تنبيه، فلكلٍّ طريقة، هداه اللّه عزّ وجلّ إليها إن كان من أهل الهداية، و الطرق إلى اللّه بعدد النّاس و الخلائق و هم درجات عند اللّه، يرفع اللّه الّذين آمنوا منكم و الّذين أوتوا العلم درجات»[29] فيقول الحلاّج:

تفكّرت في الأديان جدّ محقق فألفيتها أصلا له شعَب جمّا
فلا تطلبَن للمرء دينا فإنّه يصدّ عن الأصل الوثيق و إنّما
يطالبه أصل يعبّر عنده جميع المعالي و المعاني فيفهم[30]

الحلاّج يعتبر فهم الحقيقة هبة من اللّه تعالى و يقول:

فاسمع بقلبك ما يأتيك عن ثقة و انظر بفهمك، فالتّمييز موهوب[31]

الحلاّج يصغى بضميره إلى كـلمات المحبوب عزّ و جلّ ، إنّها كـلمات لا تصاغ فـى قوالب الألفاظ بل هى الهامات ترد علـى خاطر العارف و يقول:

لي حبيب أزور في الخلوات حاضر غائب عن اللّحظات
ما تراني أصغي إليه بسرّي كي أعي ما يقول من كلمات
كلمات من غير شكل و لا نطـ ـق و لا مثل نغمة الإصوات
فكإنّي مخاطب كنت إيّا ه علـى خاطري بذاتي لذاتي[32]

الحلاّج يستخدم لغات و مصطلحات غنيّة استلهمها مـن المـذاهب السّماويّة المتنوعّة و هو لايعدّها جهداً لتقويّة تلك المذاهب و المشارب بل هى باعتبار روح الدّعوة الدينيّة.[33]

و هو أوّل شاعر صوفىّ احتفى بـ «الأنا» كـمفهوم شعرى صوفى، محـاولا تأسيسه فـى الشّعر الصّوفى، معتمدا علـى ضمير المتكـلّم«أنـا» و علاقتـه بضـمير المخاطـب «أنـت» و سعى ألى أن يخلق بين ضمير المتكـلّم «أنا» و ضمير الخطاب «أنت»، إتّحاداً انفـرد بـه عـن سائر العرفاء و يعدّ ميزة بارزة فـى شعره، و قد اطلق عليه مصطلح أو مفهـوم «الحلـول» أى حلول اللاّهوت فـى النّاسوت[34] وهو تجلّى اللاّهوت فـى النّاسوت. حيث يقول:

سبحان من أظهر ناسوته سرّ سنا لاهوتـه الثّـاقب
ثمّ بـدا لخلقـه ظاهرا في صورة الآكل و الشّارب
حتّى لقـد عاينـه خلقـه كلحظـة الحاجب بالحاجب[35]

« الأنا» عند العرفاء حجاب و هذا الحجاب يفصلهم عن الحقّ سبحانه و تعالى كـمـا قيـل: «ارفع نفسك من الطّريق فقد وصلت...»[36] و الحلاّج يطرد هذا «الأنـا». إنّـه زكـّى نفسـه عـن الغرور وفرعنتها و صار متحررا بالكـلّيّـة فـلا يعتقـد بالإثنينيّـة فـى الوجـود بـل يعـدّ نفسـه مظهراً لذات الحقّ عزّ ذكـره و لا ينظر إلى هذا «الأنا» و يتحيّر و يقول:

أ أنت أم أنا هذا في إليهين حاشاك حاشاك من اثبات إثنين
هويّـة لك فـي لا ئيّتـي أبدا كلّي علـى الكلّ تلبيس بوجهين
فأين ذاتك عنّي حيث كنت أرى فقـد تبين ذاتي حيث لا أيني
و أين وجهك؟ مقصودا بناظرتي في باطن القلب أم في ناظر القلب[37]

و عندما يريد أن يلبّى ربّه، لا يحتسب نفسه بمعـزل عـن اللّه تعـالى و لـذلك يتحيّـر، أيلبّى إيّاه سبحانه و تعالى، أو يخاطب نفسه!؟ و يقول:

لبّيك، لبّيك، يا سرّي و نجوائي لبّيك، لبّيك، يا قصدي و معنائي
أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ناديتُ إيّاك أم ناديتَ إيّائي؟

و لايزال متحيّر و لا يعرف مهمّته فـى حبّه للّه عز و جلّ و ينشد:

فكيف أصنع في حبّ كُلِفت به مولاي قد ملّ من سقمي إطبّائي
قالوا تداوَ به منه فقلت لهم: يا قوم هل نداوي الدّاء بالـدّائي[38]

و بما أنّ مصدر المعرفة هو قلب السّالک الّذی قد أضاء فیه الربّ عزّ و جلّ من نور رحمته، والعارف بمعونة هذا العطاء یفهم و یدرک السرّ المخفیّ للعالم.[39] فقد روی الإمام الحافظ ابن أبي شیبة في (المصنف رقم 35485 عوامة) قال: حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن مکحول؛ قال: بلغني أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال: "ما أخلص عبد أربعین صباحا إلا ظهرت ینابیع الحکمة من قلبه علی لسانه." و الحلاج بما أنّه عبد مخلص معرفته حصلت من جرّاء تجربة ذاتیّة أی من الکشف و الشّهود إذ یقول:

رأیت ربّـــي بعین قلبي فقلت من أنت قال أنت
أشار ســـرّي إلیك حتّی فنیت عنّـي و دمت أنت[40]

«الأنا» المنصوری

لا غرو أنّ تعیین المفهوم الدقیق لکلمة «الأنا» متعذّر؛ إذ قد استخدمت هذه الکلمة فی أکثر فروع العلوم الإنسانیّة لاسیّما الفلسفة و علم النّفس و الصّرف و النّحو العربی و لها معان اصطلاحیّة تتباین فی کلّ منها ، ففی الفلسفة«الأنا»: مبدأ التفکیر عند الفلاسفة المحدثین[41] ، و هو مبنی فکرة دیکارت حیث قال: أفکّر، إذن فأنا موجود[42] و فی علم النّفس: «الأنا» البشری تستقلّ عن وجود الانسانی المادیّ[43] و هی تجربة الفرد لنفسه، أو تصوّره الکلّی لذاته، أو الوحدة الدینامیّة الّتی تؤلّف الفرد.[44] و فی النّهایة: «أنا» فی علم الصّرف: ضمیر رفع منفصل للمتکلّم[45]. و فی النّصوص العرفانیّة تتباین عمّا ورد فی العلوم المذکورة، بل هو عنوان لما هو ولید التجربة الخاصّة للعارف وثمرة نظرته العرفانیّة إلی العالم، نظرة أسسّت علی وحدة التجلّی و أنّ العالم مظهر هذا التجلّی، فلقد جاء فی القرآن الکریم: أینما تولّوا فثمّ وجه الله[46] و قد حکی عن الحلاّج: ما رأیت شیئا إلاّ و رأیت الله معه وقد قال ابو حامد الغزالي:

و هل أنا إلاّ أنت ذاتاً و وحدةً و هل أنت إلاّ نفس عیني هویّتي
و هل أنا إلاّ دوحة قد غرستها فإن لم یصبها وابل منك جفّت

و الحلاّج عندما یتحدّث عن هذا التّجلّی یقول :

لم یبق بیني و بین الحقّ تبیاني و لا دلیـل بایات و برهان
هـذا تجلّي طلوع الحقّ نائره قد أزهرت في تلالیها بسلطان[47]

و فی نظرة العارف، المحبّة هی أساس تلک الوحدة و القوّة الفاعلة فی فناء«الأنا» فی« الأنا» حتّی یصبح الإثنان(العبد و الربّ) قیاما واحداً فی قائم الانسان الّذی جمع بین عالمی الشّهادة والغیب، الرّوح و الجسد. فی هذه الوحدة یصیر المحبّ عین المحبوب و لا یستقل أحد عن الآخر یقول سري سقطي: لا تصحّ المحبّة بین اثنین حتّی یقول أحدهما للآخر: یا«أنا»[48]و یقول الحلاّج:

إنّ کتـــابي «یا أنـا» عن فرط سُقم و ضنی[49]

و يقول:

قد وسم الحبّ منــه قلبي بميسم الشّوق أيّ وسم
و غاب عنّي شهود ذاتي بالقرب حتّى نسيت اسمي[50]

و يقول:

أنا فـي الحبّ قتيـل و مع الأحباب فـانـي[51]

التوحيد فى شعر الحلاّج

لقد جاء هذا المفهوم فى كـلام لإمام العرفاء، أمير المؤمنين على بن ابى طالب(عليه السّلام) إذ يقول: إنّ اللّه سبحانه و تعالى داخل في الأشياء لا كشيء داخل في شيء و خارج من الأشياء لا كشيء خارج عن شيء[52].

و الحلاّج فى مجال اثبات توحيده تعالى، يأتى ببرهان الصّدّيقين، إذ فى هذا البرهان ، نفس الواجب ـ سبحانه ـ دليل على ذاته تعالى[53] و يقول:

لا يستـدلّ على الباري بصنعته رأيتــم حدثا ينبي عن أزمان؟
كان الدّليـل له منه إليه به من شاهد الحقّ في تنزيل فرقان
كان الدّليل له منه به و له حقّا وجدنا بــه علماً بتبيان
هذا وجودي و تصريحي و معتقدي هـذا توحّـد توحيدي و ايماني[54]

إنّه يرى غايته إلى اللّه و إليه المصير و الرّجوع، و مقتبساً من الآية الشّريفة ـ « إنّـا للّه و إنّا إليه راجعون»[55]. و يقول:

أرجع إلى اللّه، إنّ الغاية اللّهُ فلا إله إذا بالغتَ ـ إلاّ هـو[56]

معلـوم أنّ الاسـتغناء عـن الحـق سـبحانه سـبب الطغيـان كـما ورد فـي القـرآن: كَلَّـا إنَّ الْإنسَانَ لَيَطْغَى أن رَّآهُ اسْتَغْنَى(قلم/ 6) و حسب بيان القرآن إنّ فرعون قد طغى «اذْهَـبْ إلَـى فِرْعَـوْنَ إنَّـهُ طَغَـى»(طـه/24) و عـلا فـي الأرض «وَإنَّ فِرْعَـوْنَ لَعَـالٍ فِـي الأَرْضِ وَإنَّـهُ لَمِـنَ الْمُسْرِفِينَ»(يونس83) وادّعى أنّه الربّ الأعلى حيث صرّح « فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى(النازعات 24).

الحلاّج لا يعدّ ذاته مستقلاّ عن اللّه تعالى، و قد تطرّق إلى أصل الوحـدة بـكـلمـات نحـو الضّمير المنفصل«أنا» و الضمير المتّصل الفاعلى (تُ» و ياء المتـكـلّم«ى»، و قد يعدّ نفسه مظهرا لحلول اللاّهوت فى النّاسوت و يعنون«الوحـدة الحلوليّـة» و قـد يعتبـر نفسـه مظهـراً للتجلّى الاله‌ى و يشاهد فى نفسه ذاته عزّ و جلّ و ينشد فى الوحدة الشّهوديّة و يقول:

فأنا الحقّ حُقّ للحقّ حقّ لابسٌ ذاته فما ثمّ فرق
قد تجلّت طوالع زاهرات يتشعشعن و الطّوالع برق[57]

الوحدة الوجوديّة:

الحلاّج موحّد فى عقيدته و لدى إظهار عبوديّته للّه يتحدث عن وحدة الوجود(10) و لا يعتبر وجوده منفصلا و مستقلاّ عن ذاته عزّ وجلّ و يعتقد أنّه لابدّ من الاعتقاد باللّه تعالى و يقول:

لست بالتّوحيد ألهو غير أنّي عنه أسهو
كيف أسهو؟ كيف ألهو و صحيح أنّني هو[58]

و يقول:

أنا أنت بلا شكّ فسبحانك سبحاني
و توحيدك توحيدي و عصيانك عصياني
و إسخاطك إسخاطي و غفرانك غفراني[59]

و يقول

وجوده بي، و وجودي به و وصفه فهو له واصف[60]

و يقول:

روحه روحي و روحي روحه إن يشأ شئت و إن شئت يشأ[61]

و يقول:

ذكره ذكري و ذكري ذكره هل يكون الذاكران إلاّ معا[62]

و يقول:

أ أنت أم أنا هذا في إلهين حاشاك حاشاك من اثبات اثنين[63]

الوحدة الحلوليّة:

إنّ الحلاّج عند بيان علاقة الخالق بخلقه لاسيّما الانسان و الحلاّج خاصّة، يعتبر حلول الرّوح الالهيّة فى الأجسام سببا للوجود، لذلک يعتبر ذاته نموذجا من مظاهر حلول الرّوح فى الإنسان ويشبّه هذا الحلول باختلاط الشّراب بالماء الزّلال:

أنت بين الشّغاف القلب تجري مثل جري الدّموع من أجفاني
و تحلّ الضّمير جوف فؤادي كحلول الأرواح في الأبدان

و يقول:

مزجت روحك في روحي كما تُمزج الخمرة بالماء الزّلال
فإذا مسّك شيء مسّني فإذا أنت أنا في كلّ حال[64]

و قد ركز فى شعره على العلاقة الضّمائريّة بين «أنا» المتكلّم و «أنت» المخاطب، ليصل بهما إلى حالة من التوحّد و الحلوليّة، حتّى لا يصبح هناک إثنينيّة مطلقا، بل وحدة فى الواحد و يقول:

أنا من أهوي و من أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته و إذا أبصرته أبصرتنا

روحه روحي و روحي روحه مـــن رأى روحان حللنا بدنا[65]

و يقول:

جُبلت روحُك في روحي كما يُجبل العنبر بالمسك الفتق
فإذا مسّك شيء مسّني فإذا أنت أنا لا نفترق[66]

وحدة التجلّى:

الحلاّج عند معرفة اللّه تعالى يعدّ نفسه مظهراً لتجلّى الحقّ سبحانه، و بالبصيرة و بمعونة الكشف و الشّهود الذّاتى يحسب كلّ شيئ مظهراً للّه تعالى، يقول لبيد بن ربيعة:

و في كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد

و يقول الحلاّج:

فأنا الحقّ حُقّ للحقّ حقّ لابسُ ذاته فما ثمّ فرق
قد تجلّت طوالع زاهرات يتشعشعن و الطّوالع برق[67]

و يقول:

لم يبق في القلب و الأحشاء جارحة إلاّ و أعرفه فيها و يعرفني[68]

و يقول:

قد تحقّقتك في سرْ ري فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعان و افترقنا لمعان[69]

حصيلة البحث:

الإمعان فى كلمات العرفاء و نصوصهم العرفانيّة، يرشدنا إلى أنّ العرفاء متحرّرون بالكلية و سبب هذا الشعور هو نظرتهم العرفانية إلى العالم و هي ليست إلاّ ثمرة معرفتهم الخاصّة و الناتجة عن الكشف و الشّهود، و هذا التحرّر قد تبلور في بيانهم الرمزي لأنّهم عند بيان الأحوال يصرّون على استخدام الرّموز و المصطلحات العرفانيّة المبهمة، و يستخدمون لغة الشّعر لأنّها لغة الرّموز و الالغاز و التّورية، فكلمة «الأنا» فى شعر الحلاّج و فى كلامه المشهور(أنا الحق)، لها طابع رمزى و تحكى عن عقيدته التّوحيدية و الّتى لها جذور عريقة فى المعارف القرآنيّة.و خير دليل على تحرّره من كلّ قيد يسوق الإنسان إلى هاوية الأنانية و الطغيان.الحلاج عارف حرّ لا يعبد إلاّ اللّه و فى اتّجاهاته التوحيديّة، لا يعتبر لغيره تعالى وجوداً مستقلاّ، و باستخدام ضمير«أنا» و سائر ضمائر المتكلّم لا يعرف لذاته وجودا مستقلاّ و يعتقد بوحدة الوجود و فى بيان علاقة الخالق بالمخلوق، يتحدّث عن وحدة الحلول و حلول اللاّهوت فى النّاسوت، كما يعتقد أنّ العالم كلّه، مظهر بارز لتجلّى الحقّ سبحانه و تعالى، و يتحدّث عن وحدة التجلّى.

التعليقات

1. experience : الاختبار العلمى experiment :تجربة تنتهى إلى الخبرة الشّخصيّة لدى الإنسان.

2. **الكشف** : رفع الحجاب و فى اصطلاح العرفاء: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبيّة و الأمور الحقيقيّة وجوداً أو شهوداً، بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنّه رأى عين.

3.**الواردات** : الوارد ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة ممّا لا يكون بتعمّد العبد .

4.**الخواطر**: ما يرد من المعانى الغيبيّة من غير تعمّد من العبد.فإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس و إذا كان من الشطحان فهو الوسواس و إذا كان من قبل اللّه سبحانه و إلقائه في القلب فهو خاطر حقّ.

5.**الذوق**: ما يجده العارف من ثمرات التجلّى.

6.**الوجد**:الوجد هو ما صادف القلب من فزع و همّ أو رؤية معنى من أحوال الآخرة .

7.**الفرق و الجمع**:ما يليق بأحوال البشريّة فهو فرق و ما يكون من قبل الحق من أحسان فهو جمع.

8.**القبض و البسط**:القبض هو أخذ القلب بوارد يشير إلى ما يوحشه من الصدّ و الهجران و البسط وارد يقتضيه إشارة إلى قبول و رحمة و أنس

9.**شطحيّات**: الشطح لفظة مأخوذة من الحركة لأنّها حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم فعبّروا عن وجدهم بعبارة يستغرب سامعها

10.**الغنوصيّة**: نزعة فكريّة ترمى إلى مزج الفلسفة بالدّين و تشتمل على طائفة من الآراء المضنون بها على غيرأهلها و تطلق على جماعة من المفكّرين فى القرنين الأوّل و الثّانى.

11.**مقام وحدة الشّهود**: مقام لا يشهد العارف فيه وجودا مستقلاّ عن وجود الإله جلّ و علا، و لا يشهد الإثنينيّة فى الوجود.

الهوامش و الإحالات:

[1] – **تجلّيات الأنا، في شعر الفارض**، عباس يوسف حداد، رابطة الأدباء ، كويت، ص:56.
[2] – **الفتوحات المكّيّة**، محي الدين بن عربي، تحقيق د. عثمان يحيى و ...، بيروت، دارالفكر. ج1، ص100.
[3] – **ديوان الحلاج** ، شرح و تحقيق هاشم عثمان،موسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت1423هـ، ص 166.
[4] – **بحار الانوار**، محمد باقر المحلسى، ط2، بيروت، دار الوفاء، 1403هـ . ج66،ص391.
[5] – **ديوان الحلاج** ،ص36.
[6] – **نفس المصدر**، ص 46.
[7] – **نفس المصدر**،ص 79.
[8] – **حديث الأربعاء**،الامام الخميني، نقلاعن بحارالانوار1،ص225
[9] – **الفتوحات المكّيّة**،3،ص335.
[10] – **نفس المصدر**، ج1،ص256
[11] – **آشنايي باعلوم اسلامي**، مطهّري، دفتر تبليغات، قم، ص208.
[12] – **الرسالة القشيريّة**، ابو القاسم عبد الكريم القشيري، تحقيق عبدالكريم محمود و...، بيدار، 1374.ص121.
[13] – **تاريخ الأدب العربى، العصر العبّاسى الثّانى**، شوقي ضيف، دارالمعارف، مصر.عمر فرّوخ،ج3،ص 403.
[14] – **منازل السائرين**، ص 84.
[15] – **تجلّيات الأنا**، ص199.
[16] – **ديوان الحلاّج**،ص134.
[17] – **في التصوّف الاسلامي**، ص124. **تجلّيات الأنا**،ص 304
[18] – **فصّلت**/53.
[19] – **مائدة**/54.
[20] – **أصول الكافى**، الشيخ الكلينى، مكتبة الاسلاميّة، تهران، ج1، ص145.
[21] – **ديوان أبى العتاهية**، شرح ديوان ابي العتاهية، دارالكتب العلمية بيروت.ص62.
[22] – **الأعلام** ، خير الدّين الزركلى، دارالعلم للملايين، بيروت،1986م، ج2،ص260.
[23] – **آشنايي با علوم اسلامي**، ص209.
[24] – **سير تكامل عرفان و تصوّف اسلامي**، ص112.
[25] – **ابعاد عرفان اسلام**، آن مارى شيمل، ترجمه عبد الرّحيم گواهى، دفتر نشر، 1377.ص148.
[26] – **تاريخ الأدب العربي**، العصر العباسي الثاني، ص478.
[27] – **تاريخ الأدب العربي** ، العصر العباسى الثانى ،ص482
[28] – نامه هاي عين القضات، مقدمه منزوي،ص149
[29] – المجادلة/11. بحار الانوار،ج 14،ص137
[30] – **ديوان الحلاّج**،ص 128.
[31] – نفس المصدر،ص20.
[32] – نفسه،ص 50.
[33] – **سخن أنا الحق و عرفان حلاّج**، لوئي ماسيون، ترجمه دهشيري،نشر جامي،1374 تهران. ص15

[34] – **التجلّيات**، ص 198
[35] – **ديوان الحلاّج**،ص38.
[36] – **نامه های عین القضاة**، تمهيدات ص 24.
[37] – **ديوان الحلاج**،ص 144.
[38] – نفس المصدر،ص 32.
[39] – **شرح ديوان حلاج**، لويي ماسيون،ص84.
[40] – **ديوان الحلاج**،ص 52.
[41] – **تجلّيات الأنا**، ص .195
[42] – **فی سبيل موسوعة فلسفيّة**، ديكارت، د. مصطفى غالب، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1989م ص106.
[43] – **ترجمه و تفسير نهج البلاغة**، علاّمه جعفري، دفتر نشر، تهران ج2،ص142.
[44] – **موسوعة علم النّفس**، د. أسعد رزوف، المؤسسة العربيّة للدراسة و النّشر، بيروت، 1987م، ص46.
[45] – **المعجم المفصّل**، اميل يعقوب، دارالعلم للملايين، بيروت ، ص 236.
[46] – البقرة/115
[47] – **تجليات الأنا**،ص 137.
[48] – نفس المصدر، ص 198.
[49] – نفس المصدر،ص155.
[50] – نفس المصدر،ص130.
[51] – نفس المصدر،ص 160.
[52] – **الكافي**،ص1،ص85.
[53] – **شرح منظومه**، مرتضى مطهّرى، انتشارات حكمت، تهران، 1362،ج2،ص130.
[54] – **ديوان الحلاج**،ص 138.
[55] – بقرة/ 156.
[56] – **ديوان الحلاج**،ص164.
[57] – نفس المصدر،ص 139.
[58] – نفس المصدر،ص 167.
[59] – نفس المصدر،ص 141.
[60] – نفس المصدر،ص110.
[61] – نفس المصدر.
[62] – نفس المصدر،ص107.
[63] – نفس المصدر،ص144
[64] – نفس المصدر،ص122.
[65] – **تجلّيات الأنا**،ص 199.
[66] – **ديوان الحلاج**،ص112.
[67] – نفس المصدر،ص114.
[68] – نفس المصدر،ص 109.
[69] – نفس المصدر،ص143.